العواطف الفاسدة سبب كل فساد فى المجتمع

للأستاذ محمد أبو بكر ابراهيم

العوطف سلاح ذو حدين ، فكما تكون نافعة اذا كانت معتدلة ، كذلك تكون ضارة اذا جاوزت حد الاعتدال .

والفرد يسعد بعواطفه ويشقى بعواطفه ، والمجتمع يسعد اذا كانت عوطفه متجانسة مقترنة منسجمة ، ويشقى اذا كانت عواطفه متباينة مضطربة متطرفة . ذلك لأن العواطف الصالحة تدفع إلى العمل الصالح ، والعواطف الفاسدة تدفع إلى العمل الفاسد ؛ فهى أساس السلوك جميعا ، وأساس الأخلاق جميعا خيرها وشرها .

لو رأيت أمة ناشطة فى صبر وحزم ، تعيش فى سلام روحى ، وأمن اجتماعى ، واطمئنان نفسى ، وتعمل فى جو هادىء بنظام شامل ، واخلاص متبادل وعدالة عامة . فاعلم أن أساس هذا جميعه تلك العواطف الكريمة التى رسخت فى نفوس أفرادها فكانت دعامة لكل خير ، وغرسا لكل سعادة .

ولو رأيت قرية آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فاعلم أنها قرية قد سادت فيها العواطف الطيبة فانتظمت فيها الحياة انتظاما يدعو الى الاعجاب . ولو وقع بصرك على شخص قد قويت شخصيته ، واطمأنت نفسه ، واتجه الى البر والاحسان والخير فى جميع حالاته ؛ فهو الفرد الذى جمع عواطف المحبة والمعروف والايثار حتى صار قويا ببره وعطفه وعمله .

ولو رأيت أمة شقية فوضوية تعيش فى هرج ومرج وتخدر فى سلوكها وتصرفاتها إلى المستوى المنخفض فاعلم أنها أمة قد غلبت عليها عواطف الشر فتدهورت بها الى الحضيض .

وهـل سمعت بالقرية الظالم أهلها ، المشرفة على شفا الهلاك والفناء : إنها القرية التى انتشرت بين أبنائها عواطف الحرص والطمع والغدر والخداع والظلم والبهتان . (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) .

ثم هـل رأيت الأفراد الأوغاد وقـد سقطت نفوسهم ، وساءت ظنونهم ، وتلوثت اخلاقهم ؛ فلم يكن سلوكهم الاخرقا فى العمـل ، وجفوة فى القول . إنهم قـد انطبعت نفوسهم بعواطف الخبث والخسة والشر . فعلى حسب العواطف يكون السـلوك وتكون الأخلاق .

فمن النـاس من غلبت عليـه العاطفة الشهوية وتطرفت تطرفا أقصـاها عن الاعتدال والحكمة فصار محبـا للذاته الجسمية مقبلا عليها متجها إلى الدنيا بكلياته وجزئياته : يخشى أن يفوته شىء مما قد يستمتع به غيره من الناس . فتراه حريصا شديد الحرص ، بخيلا شديد البخل على المجتمع والمحتاجين ، وهو فى الوقت نفسه مسرف كثير الإسراف فى لذته الشخصية ومنفعته الذاتية : يعبد كل شىء فيه منفعة له وإن يكن حراما . ويقدس كل شىء فيه سرور لنفسه وإن يكن ضارا بالآخرين .

لأن هـذه العاطفة الشهوية قد طاحت به فى أودية الغرور وأبعـدته عن أودية الحياة الفاضلة السعيدة .

ومن النـاس من غلبت عليـه العاطفة الغضبية حتى صار غضوبا ساخطا مؤذيا بلسانه ويده وقلمه ، يحـاول البطش بمن هم دونه فى المنزلة أو فى القوة أو فى الجـاه أو فى الحياة العملية : فيتكبر على المساكين ، ويلوى عنقه عن المحتاجين ، ويثنى عطفه عن الناس أجمعين ، هو لا يعف عن سفاف الأمور ، ولا يتورع عن الباطل والادعاء والزور .

يكون كالبركان الثائر الذى يطغى بناره ودخانه على ما يجاوره من المدن والقرى والسهول والقلاع والبقاع .

إن جاور أحدا أغضبه ، وإن عاشر احدا أتعبه ، وإن صاحب أحدا حمل عليه مالا يطيق ، فهو كالسم القاتل والداء العياء ، والخطب الفادح .

ومن الناس من غلبت عليه عاطفة الحسد والكره لمجتمعه ، فيكره الناس ويكرهونه ، ويمقتهم ويمقتونه ، يود لو فنى العالم ليبقى هو وحده ، ويتمنى لو تزول المشروعات النافعة الاجتماعية ، وتذهب فى الهواء فلا يكون للمجتمع منها نصيب ، يكره النفع للناس ليستأثر هو بالفخار والثمرات والأموال . وهذا منتهى الانحطاط فى الأخلاق الاجتماعية .

وهيهات أن يطيب عيش لهؤلاء الشهويين والغضبيين والحاقدين والحاسدين . ان ينالوا خيرا لأنفسهم ، ولن يعملوا خيرا لأمتهم ، فقد فسدت طبيعتهم ، وفسدت عقليتهم وضاعت حكمتهم فكانوا شرا على ذويهم وعلى وطنهم .

إن المصلحين والمجاهدين ورجال التربية والتعليم يعلون دائما على ما يهذب الانفعالات والعواطف والوجدانات . ويرقيها ويضبطها ضبطا سليما حتى تخضع للعقل والضمير والقانون والشرع فتثمر عواطف جميلة ينشأ عنها السلوك الراقى والخلق المتين . حتى يطرب المرء للخلال الكريمة ، والشمائل النبيلة ، وتهزه الفضائل هزة المحب المخلص كما يقول المرحوم حافظ بك ابراهيم فى الفضيلة :

إنى لتطربنى الخلال كريمة ... طرب الغريب بأوبة وتلاق

ويهزنى ذكر المروءة والندى ... بين الشمائل هزة المشتاق

ذلك لأن هذه الانفعالات والعواطف التى خضعت للحكمة والعقل قد نشأ عنها الانسجام النفسانى ، والتوازن بين القوى فتصبح النفس موطنا للفضيلة ومستودعا للخير ، فلا ظلم ولا عدوان ولا بغى ولا كفران وهذه هى العدالة والاعتدال والسعادة الروحية . أما إذا لم تخضع هذه الانفعالات خضوعا سليما حكيما ، فإنها تتحكم فى السلوك تحكما قاسيا سيئا .

فانفعال حب التملك مثلا قد يدفع الإنسان بقوة قاسرة إلى اقتناء الأموال من طرق غير مشروعة فيجذبه ويجذب عاطفته إلى السرقة والنصب والاحتيال ، وأكل أموال الناس بالباطل ، يختطف مايستطيع اختطافه ، ويقتنص مايمكن اقتناصه ، إذا عاشر الناس عاشرهم ليعرف كيف يمتص دماءهم وكيف يظلمهم ويختلس أموالهم . ولايعاملهم إلا كما يعامل بقراته السمان : يطعمها ويسقيها لما يترقب من الربح فيها . ذلك بسبب أن هذه العاطفة قد تطرفت بصاحبها بجعلته أنانيا نهما شرها مؤثرا حياته على حياة مجتمعه ، معتزلا الفقراء والضعفاء ، لايرى لهم حقا ولايرعى لهم واجبا .

إن هذه العواطف الفاسدة تؤدى إلى تفكك المجتمع ، وتقطع أواصره فيفسد كل شىء فيه .

ويهزءون من الفضائل الاجتماعية لأنهم لا يعرفون مجتمعا سوى ذوات نفوسهم، ولا حياة سوى حياتهم إذا سمعوا فضيلة الإيثار، وحب الغير والناس، أصموا آذانهم عما يسمعون كأن فى آذانهم وقرا، وكأن فى قلوبهم صخرا: لا يشاطرون مجتمعهم فى سرائه وضرائه، ولا يحسون كما يحس، ولا يتألمون كما يتالم، فهم منافقون مخادعون: يضنون عليه بالجود والسخاء ثم يهرولون إلى خيراته فيغتصبونها ويحلونها لأنفسهم.

هؤلاء هم الذين وصفهم شاعر سوريا "بقوله:

ضاع رأيى فيمن أرى حين أمست ... ألسن الناس لا تطيع القلوبا

تارة أحسب الحبيب بغيضا ... وزمانا أرى البغيض حبيبا

يحسبون الجميل أسوأ صنع ... والسجايا المكملات عيوبا

ألا إن الفضائل كلها تنشأ من العواطف المهذبة الراقية والرذائل كلها تنشأ من العواطف السافلة الجامحة ولن يصل الفرد والمجتمع إلى السعادة الخالدة إلا بالعواطف الشريفة النبيلة.

محمد أبو بكر ابراهيم
المفتش بوزارة المعارف